

بدر الدين محمد بن أحمد الدمشقي الشهير بسبط المارديني «عصره وحياته»

د. بدر عبد الرزاق الماص

(موجز عن موضوع البحث)

تناولت في هذا البحث عصر وحياة العالم الشهير (بدر الدين محمد بن محمد بن أحمد الدمشقي الشهير بسبط المارديني) وجعلته مقسما إلى قسمين: خصصت أولهما في الحديث عن عصره، وثانيهما عن حياته.

فتحدثت في القسم الأول عن الحياة السياسية، والحياة الاجتماعية، والحياة الاقتصادية، والحياة الدينية، والحياة العلمية في عصر المارديني.

فذكرت في الحياة السياسية صورة عن انتقال الخلافة من بغداد إلى القاهرة، ودور المماليك في تثبيتها، وعرفت بالخلفاء الذين عاصروهم (سبط المارديني) والسلطين الذين تولوا الحكم في هذا العهد، وأشارت إلى الأوضاع السياسية التي صاحبت هذه الفترة. وتناولت في هذا الجانب أيضا نظم الحكم، والهيكل الإداري الذي يتشكل منه، والقضاء وأصنافه، ودور القضاء في ذلك العصر.

أما الحياة الاجتماعية: فتحدثت فيها عن طبقات المجتمع المختلفة: طبقة

(*) رئيس قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية الأساسية بالكويت

الحكم، وطبقة المثقفين أرباب القلم، وطبقة التجار، وطبقة الصناع، وطبقة عامة الشعب.

أما الحياة الاقتصادية: فتحدثت فيها عن النشاط التجاري، والقلق الاقتصادي الذي مرت به تلك الحقبة، والأسواق وما كان يتتابها من سلب ونهب في كثير من الأحيان.

وفي الحديث عن الحياة الدينية عرضت ظاهرتين أساسيتين هما: ظاهرتا التصوف، وأهل الذمة، وأما الحياة العلمية والثقافية فأشرت فيها إلى دور المماليك في تشجيع الحركة العلمية، وبناء المدارس والإغداق عليها في الإنفاق، وعرضت إلى أنماط التأليف التي سادت ذلك العصر، كالتأليف الموسوعي، وظاهرة المتون والشروح، والإكمالات والتذييلات.

أما القسم الثاني: فكان عن حياة (سبط المارديني) واشتمل على اسمه، ونسبته، ومولده، ونشأته، وطلبه للعلم، وأخلاقه، ومواهبه، وشيوخه، ورحلاته، وحياته العلمية، ومصنفاته، ووفاته، وتناولت ذلك أولاً بإجمال، ثم أعقبته بملاحظات هامة، تصور مدى تفاعله مع عصره الذي عاشه، ومكانته العلمية والاجتماعية التي تبوأها.

مقدمة

اللهم ربنا لك الحمد، كما ينبغي لجلال وجهك الكريم. وأشهد ألا إله أنت، رب العرش العظيم، سبحانه، لا علم لنا إلا ما علمتنا، أنك أنت العليم الحكيم، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وهداية للخلق أجمعين.

وبعد

فإن الإنسان يفتقر في دينه ودنياه إلى معلومات كثيرة، لا سبيل له إليها إلا بالأخبار، وإذا كان ذلك كذلك فإن تبليغ شرع الله ودينه، وما يتعلق بذلك من علوم ومعارف شتى يحتاج إلى علماء أجلاء أفاضل في كل جيل، يخبرونهم بأوامر الله عز وجل، ويبينون لهم كل ما يتعلق بدينهم الذي ارتضاه الله - عز وجل - لهم، من أجل ذلك فإن الله جلت قدرته قد هيا ذلك لأمة محمد - ﷺ -، فسخر لها في كل جيل خواص يقومون بحفظ جميع ما تحتاج إليه الأجيال، من تفسير لكتاب الله - عز وجل - ولسنة نبيه - ﷺ - وما يتبع ذلك من آثار للصحابة، وقضايا القضاء، وفتاوي الفقهاء، وما يتعلق باللغة وآدابها، والشعر، والتاريخ، وغير ذلك. والتزموا وألزموا من بعدهم بتبليغ ما بلغوه، بل والاجتهاد فيما يستجد من الأمور التي تهتم المسلمين في كل زمان من الأزمان. وهذا فضل من الله، يؤتيه من يشاء من عباده.

كل هذا وغيره أسهم إسهامات كثيرة في مسيرة العلم الإسلامي على مر السنين؛ لأن هؤلاء العلماء الأجلاء قاموا بواجبهم خير قيام، وقد ذخرت الكتب المهمة بدراسة أحوال هؤلاء الأفذاذ واهتماماتهم وآثارهم العملية وغيرها بالحديث عنهم، لكي تعرف الأجيال المتعاقبة ما قدم لهم، وليقفوا على أحوال من سبقوهم.

ولما كان علم دراسة أحوال علمائنا الأجلاء وتتبع مجهوداتهم العلمية من

العلوم المهمة، لذا أردت المشاركة بجهد المقل في تناول شخصية علمية إسلامية أثرت تأثيراً كبيراً في الحياة العلمية الإسلامية في حقبة متأخرة من الزمن، وجدت من وجهة نظري أن هذه الشخصية جديرة بالاهتمام، والتنقيب عن جهودها الجبارة في خدمة العلم الإسلامي، كي تكون مثلاً حياً أمامنا؛ لعل وعسى أن يكون ذلك سبباً في أن تشجع الأجيال المعاصرة فتحذوا حذوها، وترسم منهجها، دون التعلل بالمعوقات، مهما كان شأنها.

وهذا العالم الجليل الذي اخترته للحديث عنه هو «بدر الدين محمد بن أحمد الدمشقي، الشهير بسبط المارديني» المولود في سنة ٨٢٦هـ أي القرن التاسع الهجري.

وقد قسمت بحثي إلى قسمين:

تناولت في أولهما: عصره الذي وجد فيه من حيث:-

- ١ - الحياة السياسية في هذا العصر «القرن التاسع الهجري»، واقتضى ذلك الحديث عن الخلفاء والولاطين الذين عاصرهم عالما الجليل، لما لذلك من أثر في توجيه حياته.
- ٢ - الحياة الاجتماعية: لما في ذلك من أهمية في بيان المنزلة التي يتبوأها العلماء أمثال سبط المارديني بين طبقات المجتمع المختلفة.
- ٣ - الحياة الاقتصادية.
- ٤ - الحياة العلمية والثقافية، وبيان أشكالها المختلفة، وفصلت القول في ذلك ليتضح لنا مجهودات سبط المارديني في هذا المجال، ومقارنتها بالمنهج العلمي المحيط به.

وأما القسم الثاني: فخصصته للحديث عن حياة عالما المقصود بالبحث، وتناولتها من جميع جوانبها المختلفة في حدود ضيقه لعدة أمور.

- ١ - قلة المراجع التي تكلمت عنه أو تناولته بالبحث والدراسة.
- ٢ - المراجع القليلة التي تكلمت عنه أثرت الاختصار في التعريف به.
- ٣ - معظم كتبه التي ألفها ما زالت على - حد علمي مخطوطة - لم تر النور بعد.

٤ - جنوح عالمنا إلى التأليف في علم الحساب والفلك، فقد كانت أغلب مؤلفاته في هذا الجانب. وهذا النوع من العلوم بعيد عن تخصصي، مما جعلني أعرض عن الكتابة في منهجه وطريقته في البحث والتأليف، تاركا ذلك لأهله.

والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، إنه سميع، قريب، مجيب الدعوات، رب العالمين.

وبالله التوفيق

الفصل الأول

عصر العالم الشهير (بدر الدين سبط المارديني)

ويشتمل على :

أولاً : الحياة السياسية

ثانياً : الحياة الاجتماعية

ثالثاً : الحياة الاقتصادية

رابعاً : الحياة الدينية

خامساً : الحياة العلمية

أولاً : الحياة السياسية

وتشتمل على ما يأتي :

أ - انتقال الخلافة من بغداد إلى القاهرة، ودور المماليك في تثبيتها.

ب - الخلافة.

ج - نظم الحكم.

د - القضاء.

الحياة السياسية

انتقال الخلافة من بغداد إلى القاهرة ودور المماليك في تثبيتها :

بعد دخول التتار بغداد تحولت الخلافة العباسية إلى القاهرة، وحرص المماليك على بقاء الخليفة رمز السلطة الإسلامية في القاهرة. لتقوية مركزها بوجوده فيها. ولتكتسب الدولة المملوكية الصفة الشرعية، وليعظم نفوذها، وتزداد أهميتها لدى الدول الإسلامية الأخرى.

والخلافة في هذا الحين - رغم أنها لم تكن إلا رمزا دينيا وسياسيا فحسب -

إلا أن الناس كانوا يتطلعون إليها على أنها الأمل الباقي في سبيل وحدة المسلمين، ولذلك فقد أصبح المماليك محط أنظار واهتمام المسلمين في العالم، مما قوى من وضعهم، وجعلهم يكونون أقوى دولة في تلك الحقبة من التاريخ، وأدى ذلك إلى تمكنهم من الوقوف في وجه الغزو المغولي، الذي دمر الحضارة الإسلامية في مساحات شاسعة من الأرض، تمتد من حدود الصين والهند إلى العراق، وحتى بلاد الشام، ولقد تقهقرت أمامهم الجيوش والحضارة الإسلامية حتى اضطرت للالتجاء إلى مصر وبلاد الشام، ولسنا هنا بصدد بحث الغزو المغولي للعالم الإسلامي، ولكننا نريد أن نقول: إن الحضارة الإسلامية وجدت ملجأ لها في بلاد الشام ومصر بعد الغزو المغولي، فترة تنوف على القرنين ونصف القرن (٦٥٨ - ٩٢٣) هـ.

فكانت القاهرة - المدينة التي نشأ فيها سبط المارديني - إبان العصر المملوكي بعيدة عن الغزو المغولي الذي عاث في مدن الشرق الإسلامي الفساد والدمار، لذا فقد أصبحت ملاذا للعلماء والمفكرين، ومستقراً آمناً للهاربين من وجه الغزاة.

وبحكم الحالة السياسية فقد أصبحت مصر والشام دولة واحدة قوية تعقد عليها آمال المسلمين في الشرق والغرب، حيث لم يكن للمسلمين دولة ذات شوكة غيرها، وحلت القاهرة محل بغداد في كل شيء، وأصبحت وارثة لها في تركتها: سياسياً، وحضارياً، وثقافياً.

وهذا ما أشار إليه السيوطي بقوله: «إن مصر حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنة. وعفت البدعة، وصارت محل سكن العلماء، ومحط رجال الفضلاء»^(١).

لكن العهد المملوكي لم يسر نمطاً واحداً، بل مر بعهدين مختلفين: عهد القوة والتقدم والحضارة، وعهد التقهقر والانحطاط الذي انتهى بالاستيلاء

(١) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة - مطبعة إدارة الوطن القاهرة ١٢٩٩ هـ (ج ٢ / ٨٦).

العثماني على بلاد الشام ومصر: ولكل من العهدين مميزاته الرئيسة، والحضارية، والواقع أن هناك انقطاعاً وتبايناً تاماً بين العهدين في كل شيء، حتى ليشك الباحث في أن يكون العهد الثاني امتداداً للعهد الأول، وذلك للتناقض بين العهدين^(١).

وتخلل العهدين فترة انتقال بينهما، تلك التي غزا فيها تيمور لنك بلاد الشام، وكان ذلك في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، وسنركز اهتمامنا في هذه الدراسة على العهد الثاني للدولة المملوكية، لأنه العصر الذي عايشه سبط المارديني. فنلاحظ إذاً أمعنا النظر أن هذا العصر قد ساد الاضطراب السياسي والعسكري المستمر، الناتج عن ثورات الحكام ضد السلاطين، أو ضد بعضهم بعضاً من أجل السلطة. وكان العرش لمن غلب. ولم يكن للشعب شأن في هذا المعترك، وإنما عليه أن يدفع ثمن هذه الحروب باهظاً، وهذا الثمن يشمل في المصادرة والنهب والضرائب الثقيلة، وما شابه ذلك.

ونتيجة لهذه الفوضى والاضطراب فقد أهمل ملوك هذه الفترة شؤون الشعب كلها، فأهملوا التجارة، والزراعة، وتسلبت الجيش على الشعب، وانتشر الاقطاع، وتدهورت أوضاع البلاد في جميع الحقول العسكرية والاقتصادية والسياسية، والعلمية والثقافية، حتى غرقت البلاد في فوضى رهيبة، مما مهد الطريق أمام العثمانيين للاستيلاء على بلاد الشام ومصر، وإنهاء حكم المماليك^(٢).

الخلافة:

تولى الخلافة في عصر سبط المارديني ستة من خلفاء بني العباس هم:

١ - المعتضد بالله الثاني.

٢ - المستكفي بالله الثاني.

(١) د. محمد حمادة، دراسة توثيقية للتاريخ الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٨ (ص ٣٦٣).

(٢) المصدر السابق.

٣ - القائم بأمر الله .

٤ - المستنجد بالله .

٥ - المتوكل على الله الثاني .

٦ - المستمسك بالله .

كما تعاقب على الحكم في هذه الفترة ثمانية عشر سلطانا من المماليك الجراكسة^(١) .

وستتناول هؤلاء الخلفاء والسلاطين بتعريف موجز، يعطينا تصورا عن نظام الحكم، وكيفية الوصول إليه، ليكون بمثابة القاعدة التي نستند إليها في دراسة الحالة السياسية في هذه الحقبة.

أولا: المعتضد بالله^(٢)

داود بن محمد المتوكل على الله (٨١٥ - ٨٤٥) هـ

وهو داود بن محمد المتوكل على الله أبو الفتح، كانت أمه أم ولد تركية، تدعى (كزل) أعطي الخلافة حين خلع المؤيد أخاه المستعين عام (٨١٥) هـ. وكان من سروات الخلفاء، نبيلًا، ذكيًا، فطنا، يجالس العلماء والفضلاء، ويستفيد منهم، ويشاركهم فيما هم فيه، كما كان جوادا سمحا للغاية، وكانت وفاته رابع ربيع الأول سنة (٨٤٥) هـ.

من تولى الحكم في عهده من السلطين:

كان أمر السلطنة في عهد المعتضد إلى المؤيد، واستمر في ذلك حتى توفي

(١) تولى أمر المماليك نوعان من السلطين، يعودون في أصولهم إلى جهتين هما:
أ) المماليك البحرية، وهم: ممالك السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٤٨ - ٧٩٢) وسموا بذلك لأنه بنى لهم قلعة في جزيرة الروضة عام (٦٣٨).
ب) المماليك الجراكسة: نسبة إلى أصولهم التي يتمون إليها (٧٩٢ - ٩٢٣).
(٢) انظر ترجمته في: السيوطي: تاريخ الخلفاء - دار القلم، بيروت ١٩٨٦ (ص ٥٨٣).

عام (٨٢٤هـ)^(١) فقلد السلطنة ابنه أحمد، ولقب بالمظفر. وأعطى الأمير (ططر) تدبير شؤون المملكة^(٢)، وبعد مرور سبعة أشهر قبض (ططر) على السلطان المظفر وخلعه، وتسلم هو مقاليد السلطنة، فقلده الخليفة السلطنة، وتلقب باسم (الظاهر)^(٣)؛ ولم تمض سوى أربعة أشهر حتى توفي الظاهر ططر، فقلد الخليفة أمر السلطنة لابن ططر (محمد)، واختار لنفسه لقب (الصالح)^(٤)، وجعل شؤون المملكة للأمير (برسباي)، وبعد أربعة أشهر خلع الأمير (برسباي) من السلطنة الصالح ابن ططر، وتسلم شؤونها، وقلده الخليفة أمرها، فاتخذ لقب (الأشرف)^(٥).

واستمر في السلطنة حتى توفي عام (٨٤١هـ)، فقلد الخليفة السلطنة إلى (يوسف بن برسباي)، الذي لقب (بالعزيز)^(٦)، وجعل شؤون المملكة إلى الأمير (جقمق)، وبعد ثلاثة أشهر خلع (جقمق) من السلطنة العزيز يوسف بن برسباي، وتسلم هو أمرها، وتلقب باسم (الظاهر)^(٧)، وقلده الخليفة.

وكان عهد برسباي عهد استقرار، وقوة، وغزو، ولكن الحالة الاقتصادية كانت فيه متأخرة، وكان تقياً ورعاً، منع المعاصي وشرب الخمر^(٨).

(١) أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة الهيئة العامة للكتاب مصر ١٩٧٢ ج ١/١٤ - ١٦٦ يرجع إليه في مجريات الأحداث.

(٢) المرجع السابق (١٤/١٦٧ - ١٩٧) (٣)

(٣) المرجع السابق (١٤/١٩٨ - ٢١٠).

(٤) المرجع السابق (١٤/٢١٠ - ٢٤١).

(٥) المرجع السابق (١٤/٢٤٢ - ٣٧٣ و ١/١٥ - ٢٢١).

(٦) المرجع السابق (١٥/٢٢٢ - ٢٥٤).

(٧) المرجع السابق (١٥/٢٥٦ - ٥٤٨ و ١/١٦ - ٢٢).

(٨) السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص ٥٨١).

ثانيا: المستكفي بالله^(١)
سليمان بن محمد المتوكل على الله
(٨٤٥ - ٨٥٤هـ)

هو سليمان بن محمد المتوكل على الله أبو الربيع، بويع بالخلافة بعهد من شقيقه المعتضد، وكان من صلحاء الخلفاء، صالحا، دينيا، عابدا، كثير التعبد والصلاة والتلاوة، كثير الصمت، منعزلا عن الناس، حسن السيرة.

من تولى الحكم في عهده:

كان أمر السلطنة في عهده للظاهر جقمق، وكان يعرف حق المستكفي بالله، وثار على الظاهر جقمق أتابك مصر قرقماس الشيباني، ونائب الشام، وقام العبيد بفتنة في منطقة الجيزة، غير أنه تمكن من القضاء عليها جميعها. وتوفي الخليفة يوم الجمعة، الثالث من شهر ذي الحجة عام (٨٥٤هـ) وتولى بعده أخوه القائم بأمر الله.

ثالثا: القائم بأمر الله^(٢)
حمزة بن محمد المتوكل على الله
(٨٥٤ - ٨٥٩هـ)

هو حمزة بن محمد المتوكل على الله، أبو البقاء، القائم بأمر الله، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الذي لم يعهد بالخلافة إلى أحد من بعده، وهو شقيق المستعين بن المتوكل على الله. كان شهما صارما، أقام أبهة الخلافة مدة حكمه، وعنده جيروت على خلاف بقية إخوته.

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء (ص ٥٨٧ - ٥٨٨).

(٢) المصدر السابق (ص ٥٨٩).

من تولى الحكم على عهده:

استمرت سلطنة الظاهر جقمق حتى توفي في مطلع عام (٨٥٧هـ) فقلد الخليفة ابنه (عثمان)^(١) أمر السلطنة، وحمل لقب (المنصور)، وكان مدبر شؤون الدولة: الأمير (إينال). وبعد شهر ونصف من تسلم المنصور السلطنة خلعه الأمير (إينال) وتسلم مكانه. فما كان من الخليفة إلا أن قلد (إينال) أمر السلطنة، وأخذ لقب (الأشرف)^(٢).

اختلف السلطان (إينال) مع الخليفة (القائم بأمر الله) فقبض السلطان على الخليفة، وسجنه في الاسكندرية، وبقي فيها حتى مات عام (٨٦٣هـ)، ودفن هناك، ثم بايع السلطان أخا الخليفة الآخر، وهو المستنجد بالله.

رابعاً: المستنجد بالله^(٣)

يوسف بن محمد المتوكل على الله

(٨٥٩ - ٨٨٤هـ)

هو يوسف بن محمد المتوكل على الله، أبو المحاسن، المستنجد بالله، وهو الخليفة الخامس من أبناء المتوكل على الله. ولي الخلافة بعد خلع أخيه القائم بأمر الله، وتوفي عام (٨٨٤هـ) بعد أن أصابه الفالج، وبقي مريضاً بسببه مدة شهرين، وخلفه ابن أخيه عبدالعزيز بن يعقوب.

من تولى الحكم في عهده:

كان السلطان هو الأشرف (إينال) إلا أن الاضطرابات قد استمرت عليه طيلة حكمه، وقد توفي عام (٨٦٥هـ) فقلد الخليفة من بعده ابنه (أحمد)^(٤)، والذي

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة مرجع سابق (١٦/٢٣ - ٥٦).

(٢) المرجع السابق (١٦/٥٧ - ٢١٧).

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء (ص ٥٨٩ - ٥٩٠).

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة (١٦/٢١٨ - ٢٥٢).

أخذ لقب (المؤيد)، ولم تمض مدة حتى وثب على المؤيد الأمير (خشقدم)^(١)، وخلعه. واستبد بالأمر، فقلده اسم السلطنة في شهر رمضان من العام نفسه، وأخذ لقب (الظاهر سيف الدين خشقدم).

استمر السلطان الظاهر خشقدم في السلطنة مدة سبع سنوات، وتوفي عام (٨٧٢هـ) فقلد الخليفة الأمير (بلباي) الذي أخذ لقب سلفه (الظاهر سيف الدين)^(٢)، ولكن لم يلبث سوى شهرين حتى وثب عليه الجند، وخلعوه، فقلد الخليفة الأمير (تمربغا) فحمل لقب (الظاهر) أيضا^(٣)، وبعد شهرين من تسلمه السلطنة وثب عليه الجند - أيضا - وخلعوه، وأعطيت السلطنة للأمير (خير بك) مساء، وفي الصباح خلعه الجند^(٤)، ثم تقلد السلطنة الأمير (قايتباي)، فأخذ لقب (الاشرف)^(٥)، فاستقر له الأمر مدة تسعة وعشرين عاما، وأخذ الأمور بحزم، فدانت له، فانصرف إلى إنشاء الطرق والجسور، والمدارس والمساجد.

خامسا: المتوكل على الله الثاني^(٦)

عبدالعزیز بن یعقوب

(٨٨٤ - ٨٩٣هـ)

هو عبدالعزیز بن یعقوب بن محمد المتوكل، أبو العز المتوكل على الله، ولد سنة تسع عشرة وثمانمائة، وأمه تدعى (حاج ملك) بنت أحد الجنود.

ولما طال مرض الخليفة المستنجد بالفالج عهد إليه بالخلافة من بعده، فلما

(١) المرجع السابق (٢٥٣/١٦ - ٣٥٥).

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة (٣٥٦/١٦ - ٣٧٤).

(٣) المرجع السابق (٣٧٣/١٦ - ٣٨٧).

(٤) المرجع السابق (٣٨٧/١٦ - ٣٦٠).

(٥) المرجع السابق (٣٩٤/١٦ - ٣٩٦).

(٦) السيوطي: تاريخ الخلفاء (ص ٥٩١).

توفي ببيع بها عام (٨٨٤هـ)، وكانت وفاته عام (٨٩٣هـ) وعهد بالخلافة لابنه المستمسك بالله.

كان محبوبا بين الخاصة والعامة، لما امتاز به من آداب وأخلاق وتواضع وبشاشة لكل أحد.

من تولى الحكم في عهده:

استمرت السلطنة في عهده للأشرف (قايتباي).

سادسا: المستمسك بالله

يعقوب بن عبدالعزيز المتوكل على الله

(٨٩٣ - ٩١٤هـ)

هو يعقوب بن عبدالعزيز المتوكل على الله، ببيع بالخلافة بعهد من أبيه عام (٨٩٣هـ) وفي عام (٩١٤هـ) شعر الخليفة بالتعب فتنازل لابنه محمد، وبقي حتى دخل العثمانيون مصر عام (٩٢٣) وقد نقل ابنه إلى حاضرة العثمانيين، أما هو فلم ينقل لكبر سنه، وبقي حتى توفي عام (٩٢٧هـ).

من تولى الحكم في عهده:

استمر الأشرف (قايتباي) بالسلطنة إلى أن توفي عام (٩٠١) وكان قد تنازل لابنه قبل موته بيوم واحد، فقلد ابنه محمد السلطنة، فتلقب باسم (الناصر)، غير أنه لم يلبث أن عزل بعد عدة أشهر، إذ كان صغيرا لم يزد عمره على الأربع سنوات، فقلد الخليفة الأمير (قانسوه)، غير أن الجند قد وثبوا عليه، وقتلوه بعد مرور سنة على تسلمه السلطنة، وأعيد الناصر محمد بن قايتباي، ثم لم يلبث أن قتل بعد أشهر من إعطائه السلطنة، وقام (الظاهر قانسوه) خال السلطان قانسوه الذي قتل قبل إعادة الناصر محمد بن قايتباي، لكنه عزل بعد أشهر أيضا، وقام بأمور الدولة الأمير (جان بلاط)، فقلده الخليفة، وأخذ لقب (الأشرف).

وتآمر قوصروة نائب الشام مع (طومان باي) على (جان بلاط)، فقبضوا عليه، وخنقوه بالإسكندرية، وأعلنوا تعيين (طومان باي) سلطانا باسم الملك العادل، كما عينوا الأمير قوصروة أتابكا للجند، ولكن العادل (طومان باي) لم يلبث أن غدر بصديقه (قوصروة)، وقتله، وبدأت مرحلة من الظلم، فنفر الجند من العادل، وبدأوا يتآمرون عليه، فهرب واختفى، فاتجهت الأنظار إلى الأمير (قانسوه الغوري) لتعيينه سلطانا، وكان كبير السن، وكان مملوكاً للأشرف قايتباي، ثم أعتقه بعد أن أظهر شجاعة فائقة، وجعله من خاصة أتباعه، وعينه عام (٨٨٦هـ) حاكما للوجه القبلي، ونائبا على طرسوس، وحاجب الحجاب في حلب عام (٨٩٤هـ).

فلما عرضت عليه الإمارة رفض ذلك، وبكى إذ لاحظ ما آل إليه أمر المماليك وقتل بعضهم لبعض، غير أنهم أصروا على تعيينه، فاشترط دعمه، وعدم التآمر عليه، فوافقوا على ذلك، فقلدوه السلطنة في شوال عام (٩٠٦هـ) وكان قد قارب الستين من العمر، وتلقب باسم (الأشرف) وكانت كنيته أبا النصر.

تابع الأشرف قانسوه الغوري السلطان العادل (طومان باي) حتى قبض عليه حيلة وقتله، وعين في الدولة الأمراء الذين يثق بهم، وحصن الإسكندرية، ورشيد، وأصلح القلعة، وحفر الترع، وأكثر من المماليك، واعتنى بهم، ووطد الأمن والاستقرار^(١).

ويلاحظ مما تقدم: أن السلطان كان يتسلم الأمر، ويحكم مدة، ويعهد لابنه من بعده، وغالبا ما يكون صغيرا، فيكون عليه وصيا، أو نائبا عنه، أو مديرا لأموار المملكة، وهو من المماليك أيضا، ثم لا يلبث أن يقوم بالاستبداد بالسلطنة وخلع السلطان المعهود إليه بالأمر، أو قتله.

(١) انظر هذه الأحداث في: بدائع الزهور في وقائع الدهور، المعروف بتاريخ مصر لابن إياس محمد بن أحمد الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣١١هـ (ج ٢ / ٣٠٣ - ٣٩٦).

كما أن سلطة الخلفاء كانت سلطة اسمية فقط، فلم يكن لهم نفوذ البتة، وكانوا خاضعين للسلاطين والحكام خضوعاً تاماً، ولم يكن بإمكانهم أن يفعلوا غير هذا، ولكن المهم هو الشرعية التي كانوا يصفونها على المتغلبين، فقد كان هم المتغلب الأول الذي يحصل على مركز السلطنة بالقوة: أن يستصدر من الخليفة عهداً شرعياً يجعله سلطاناً للمسلمين، وأن سلطته شرعية، وولايته مرعية.

ولقد تمكن أغلب الخلفاء من إبعاد أنفسهم عن صراعات الحكم بين المماليك، ولم يكن لهم شأن يذكر، إلا في القليل النادر.

فكان المماليك هم السلطين، وهو ولاية الأمور، ولهم الدور في تسيير شؤون الدولة، سواء أكان في الداخل أم في الخارج.

والسلطين هم الذي نسب إليهم العهد. ولم ينسب للعباسيين وهم الخلفاء، أو أمراء المؤمنين بالنسبة إلى المسلمين في جهات الأرض.

وقد تميز هذا العصر - بصفة عامة - بالاضطرابات فلقد كانت الفتن الداخلية والمنازعات بين أمراء المماليك من أجل الوصول لسدة السلطنة هي طابع ذلك العصر^(١).

وفضلاً عن هذه الفتن الداخلية فلقد طبع هذا العصر ببعض الاضطرابات الخارجية؛ التي تعود لسلطين المماليك على مواجهتها، وهي خروج أمراء الشام عن طاعتهم، وكذلك تعرض البلاد للغزو المغولي ولغارات الأعراب المتكررة^(٢).

نظم الحكم

كانت دولة المماليك إقطاعية، وقد قسمت أراضي مصر إلى أربعة وعشرين

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام - الطبعة الأولى، دار النهضة العربية القاهرة سنة ١٩٦٥ (ص ٣٢٣).

(٢) المصدر السابق (ص ٤).

قيراطاً، اختص السلطان منها بأربعة قراريط، ووزعت بقية الأرض على الأمراء وجندهم، وأجناد الخليفة. والعربان، والتركمان^(١).

وكان السلطان على رأس الهرم الإداري، ووجد إلى جانبه الوزير، وقضاة المذاهب الأربعة، وأمراء المئين، وقد تعددت اختصاصات ذلك المجلس في شؤون الحرب والصلح، وشغل المناصب الكبرى للدولة، على أن السلطان لم يكن ملزماً بدعوة هذا المجلس أو الأخذ برأيه، فهو صاحب الرأي الأخير بوصفه حاكماً مطلقاً^(٢).

وقد بلغ النظام الإداري غاية في الدقة، وتنوعت الدواوين التي تخص مختلف الشؤون^(٣) وكان هناك نائب السلطنة، وهو المنصب الثاني بعد السلطان، وبعده يأتي الأتابك، وهو قائد جيش المماليك، ثم يليه الوزير الذي كان نفوذه أقل من سابقه.

ويأتي بعد هؤلاء فئة الولاة، وكان أفرادها يختارون من بين الأمراء، ليقوموا بوظيفة كوظيفة المحافظ الآن، أو أكبر شأنًا في الأقسام الإدارية، وكان أكبر هؤلاء شأنًا والي القاهرة، الذي عهد إليه بالإشراف على العاصمة وصيانتها، وحماية أهلها من عبث المفسدين واللصوص ومثيري الفتن، وكان عليه مكافحة الأمراض الاجتماعية، كانتشار الخمر وتعاطي الحشيش، وغيرها، وكان يتخذ لذلك من الوسائل ما يراه كفيلاً بتحقيق غرضه^(٤).

القضاء

حظي القضاء باهتمام رجال الدولة، كما تمتع القضاة بمكانة اجتماعية كبيرة بين الناس، وروعي في اختيارهم شروط معينة، وكان هناك قضاة المذاهب

(١) القلقشندي أبو العباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية ١٣٣١ هـ (ج ٣ ص ٤٥٣ - ٤٥٤).

(٢) سعيد عاشور: العصر المماليكي (ص ٣٥٢).

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة (ج ٢ ص ١١١).

(٤) سعيد عاشور: العصر المملوكي (ص ٣٥٦ - ٣٥٧).

الأربعة، وظل هذا النظام طيلة عصر المماليك، وكان على رأس كل فئة قاضي
قضاة المذهب، وكان لقضاة القضاة مكانة عظيمة بالدولة، قد كانوا يحضرون
مجالس السلطان، فضلا عن ضرورة حضورهم مبايعة السلطان الجديد،
وكان للقاضي الشافعي مكانة ممتازة عن سائر القضاة، وله اختصاصات تزيد
على نظرائه من قضاة القضاة^(١).

وكان هناك قضاة العسكر، وهم الذين يختصون بشؤون الجند، كما كانوا
يفصلون في المنازعات القائمة بين العسكر والمدنيين^(٢).

وكان لكل قاض عدد من النواب الذين يعينونه في القضاء، كما كان لكل
منهم عدد معين من الشهداء، الذين يتعرفون أحوال الناس. ويشهدون في
القضايا، ولهم حوانيت معلومة^(٣).

وقد تعود السلاطين أنفسهم إن يعقدوا جلسات للنظر في المظالم التي تعرض
عليهم، وكان مجلس السلطان يحضره قضاة القضاة الأربعة، وعدد كبير من كبار
رجال الدولة، وكانت هيئة جلوسهم تتم وفق «بروتوكول» معروف دقيق^(٤).

ويبدو أنه كان من حق أي إنسان أن يتقدم بشكايته إلى السلطان، مهما كان
موضوع الشكوى، حتى أبطل ذلك قايتباي، وأمر بالألا يتقدم أحد إلى السلطان،
إلا بعد أن يرفع أمره إلى القضاة، فإذا لم ينصفوه فإن من حقه رفع الأمر إلى
السلطان^(٥).

على أنه كانت هناك وظيفة قريبة الصلة بالقضاء، وهي الحسبة، وكان يحدث
أن تسند الحسبة والقضاء إلى شخص واحد، وكان عمل المحتسب يقوم على

(١) المصدر السابق (ص ٣٦٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك - الطبعة الأولى نشر دار النهضة
العربية القاهرة سنة ١٦٦٢ (ص ١٥٨).

(٤) السيوطي: حسن المحاصرة (ج ٢ ص ١٠٩ - ١١٠).

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور (ج ٢ ص ١٢٩).

سرعة البت في المخالفات التي تتعلق بالآداب العامة ونظام الأسواق، ومراعاة الأمانة في المعاملات، وكان يقوم بعقاب الخارجين على النظم الموضوعة^(١).

ثانياً: الحياة الاجتماعية

ظل المماليك في دولتهم طبقة متميزة، ولم يختلطوا بالشعب، ولم يحاولوا ذلك، بل ظلوا هم الطبقة الحاكمة عسكرياً. ويدهم السلطة والحكم والسياسة. وتركوا المناصب الدينية والقضائية والأعمال التجارية والأدبية لأفراد الشعب، وكان ذلك من أكبر أسباب ضعفهم^(٢).

وقد تمتع المماليك بحظ كبير من الثراء عن طريق الأموال والإقطاعات الكبيرة التي تصلهم من الدولة، وكان الإقطاع العسكري هو الأساس في دولة المماليك، فقد أقطع سلاطين المماليك فرسانهم وضباطهم وجنودهم إقطاعات تتناسب مع أهميتهم، فقد يقطعون لفرد واحد قرية بكاملها، أو يقطعون لأمرين قرية واحدة، يأخذ كل منهما نصفاً منها، أو يقطعون لثلاثة أمراء قرية واحدة، أو يقطعون لأربعة أمراء قرية واحدة، وقد بلغ عدد الأمراء المقطعين - كما يقول المقرئزي - واحداً وستين أميراً، أقطعوا أكثر من عشرين قرية^(٣).

وبذلك أصبح هناك طبقة عسكرية حاكمة، هي الفئة المقطعة، أما بقية الشعب فكانوا يعملون في هذه الإقطاعات، ويقدمون الفائض من الحاصلات إلى المقطعين.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى (ج: ٤ ص ٣٦ - ٣٧).

(٢) محمد حمادة: دراسة توثيقية للتاريخ الإسلامي (ص ٢٦٧).

(٣) المقرئزي نقي الدين أحمد بن علي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - تحقيق

جمال الدين الشيال، ومحمد أحمد - القاهرة لجنة إحياء التراث الإسلامي سنة ١٩٦٧ ن (ج ١

ق ٢، ٥٢٠ - ٥٣٤).

وتمتع أمراء المماليك بنفوذ عظيم في البلاد، بل كثيرا ما كان بعضهم يطغى نفوذه على نفوذ السلطان، وكثيرا ما نجد بعضهم يتصرفون في حكم البلاد وجباية الأموال لأنفسهم، في حرية مطلقة، كالسلطان سواء بسواء^(١).

وظل الحال على ذلك إلى أن تبدل في آخر عصرهم، ففقدوا روح النظام والطاعة، واتضح ذلك جليا في الحركات الإفسادية التي تهدف إلى السلب والنهب، أو الحصول على نفقة من الدولة، أو تعجلا لنفقة متأخرة، أو ما شابه ذلك، وهناك أمثلة كثيرة ذكرها ابن إياس، منها ثورة المماليك الجلبان في عام (٨٧٨هـ) حيث هاجموا بولاق ونهبوا ما فيها، وقصدوا «شونة» الأمير يشبك ادوادار ونهبوها، وقد استمرت أياما، هرب خلالها بعض الأمراء خوفا على أنفسهم^(٢).

وتكرر مثل هذا الحادث أكثر من مرة، كما كانت ثور الفتن بين بعضهم بعضا، حتى يقع القتال في صفوفهم^(٣).

واستكمالا لتصور الحياة الاجتماعية في هذه الحقبة من الزمن لا بد لنا من أن نشير إلى الطبقات الأخرى من طبقات المجتمع. فلقد كان إلى جانب طبقة المماليك - حكام البلاد - جماعة المعتمدين، أو أرباب القلم، وهذه الطائفة كانت تضم أرباب الوظائف الديوانية، والفقهاء، والعلماء، والأدباء، والكتاب.

وقد امتازت هذه الفئة طيلة عصر المماليك بمميزات معينة، على الرغم مما تعرض له بعض أفرادها من الامتهان، أو الاضطهاد في بعض الأحيان^(٤)، وقد تولى الفقهاء مناصب القضاء بالدولة، كما أسند إلى أبناء هذه الفئة بصفة عامة مناصب الوزارة، وكاتب السر. بالإضافة إلى وظائف التدريس بالمدارس.

أما التجار: فقد تمتعوا بثناء واسع، ولا سيما أن مصر قامت بنشاط كبير في

(١) طاهر حمودة: جلال الدين السيوطي - المكتب الإسلامي، بيروت سنة ١٩٨٩ (ص ٣٥).

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور (ج ٢ ص ١٤٩).

(٣) المصدر السابق (ج ٢ ص ١٨٣).

(٤) المصدر السابق (ج ٢ ص ٢٥٦).

التجارة بين الشرق والغرب، قبل اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح^(١). وقد عمد السلاطين إلى تقريب التجار منهم، لأنهم المصدر الأساسي الذي يمد الدولة بالمال، ولكنهم كانوا في كثير من الأحيان مطمع سلاطين الممالك، فأكثروا من مصادرتهم بين حين وآخر، إذا ما احتاجوا إلى الأموال^(٢).

أما طبقة الصناع والعمال وأرباب الحرف؛ فقد وجد منهم بالمدن المصرية في ذلك العهد طائفة كبيرة، فكان لهم نظم معينة، يدين بها أبناء الحرفة الواحدة، ولكل حرفة شيخ أو رئيس، يرجعون إليه فيما يهمهم، لا سيما في الوساطة بينهم وبين الحكومة^(٣).

أما باقي طبقات المجتمع ممن كانت تغص بهم المدن المصرية في ذلك العهد من الباعة والسقائين والمكارين، والمعدمين الذين يعبر عنهم في الكتب المعاصرة بالعوام والزرع والحرافيش. فقد لقي أبناء هذه الفئة ضيقاً وعسراً في الحياة، إذا ما قورنت بغيرهم من الطبقات المنعمة، حتى لاحظ بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر في ذلك الحين أن في القاهرة عدداً كبيراً يعيشون بلا مأوى في الليل والنهار، سوى الطرقات، وأجسادهم شبه عارية. وتفاوتوا في تقدير ذلك العدد بين خمسين ألفاً أو مائة ألف^(٤).

ثالثاً: الحياة الاقتصادية

كانت مصر ذات نشاط كبير في التجارة بين الشرق والغرب قبل اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح، مما جعل التجارة تزدهر بها في ذلك

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصري (ص ٣٤).

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور (ج ٢ ص ٢٤).

(٣) سعيد عاشور: المجتمع المصري (ص ٣٦).

(٤) المصدر السابق (ص ٣٨).

الوقت، وكان التجار يتمتعون بشراء واسع.

على أن القاهرة وأبواقها لم تبق على حال ثابتة من الهدوء والسكينة في ذلك العصر، بل كثيرا ما تأثرت المدينة وأسواقها بعوامل سياسية، أو اقتصادية، أو اعتبارات أمن، أدت إلى اضطراب الأحوال. فقد أدت كثرة المنازعات والفتن بين أمراء المماليك وأحزابهم، كما أدت ثوراتهم المستمرة في وجه السلطان إلى اضطراب الأمن في كثير من الأحيان، وتعرضت الأسواق لهجماتهم التي تقصد إلى السلب والنهب، وتكاد تكون جميع حوادث الفتن السياسية مصحوبة بمهاجمة الأسواق ونهب ما فيها. الأمر الذي كان يترتب عليه أن تغلق المتاجر، وتتوقف الحياة داخل الأسواق لعدة أيام، حتى يعود الهدوء^(١).

وفضلا عن ذلك فهناك العوامل الاقتصادية المتصلة - حيناً - بانخفاض النبل وما يترتب عليه من نقص الأقوات^(٢). وحيناً آخر بتلاعب السلاطين بالعملة، والتلاعب بالعملة مشهور في ذلك العصر، فكان السلطان يعتمد إلى ضرب نقود جديدة، ويجعل قيمتها أكبر مما في أيدي الناس، فيخسرون بذلك أموالاً طائلة، ويكون هو المستفيد بفروق القيمة^(٣).

كما كانت تحدث في البلاد مجاعات، نتيجة لانخفاض النبل وقلة الأقوات، أو نتيجة لاغتصاب المماليك أقوات الناس ودوابهم، لا سيما في أوقات الإعداد لبعض الحملات الحربية، كما حدث في عام (٨٩٠هـ)^(٤).

(١) طاهر حمودة: جلال الدين السيوطي (ص ٤٥)

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور (ج ٢ ص ٢٢٦).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (ج ٢ ص ١٥٧)،

(٤) المصدر السابق (ج ٢ ص ٢٣٢).

رابعاً : الحياة الدينية

وتشتمل على :

أ - مكانة رجال الدين .

ب - التصوف والمتصوفة .

ج - أهل الذمة .

الحياة الدينية

أظهر سلاطين المماليك احترامهم وتبجيلهم لرجال الدين والمتصوفين ، طيلة ذلك العصر ، وكان للفقهاء والعلماء دور - في كثير من الأحيان - في النصيح ومعارضة السلطان والأمراء ، دفاعاً عن الحق ، أو مطالبة برد بعض المظالم ، أو رفع بعض المكوس .

ولا بد لنا من الإشارة إلى أهم الظواهر الدينية في المجتمع المصري الذي عايشه سبط المارديني في تلك الحقبة من الزمن . فمن ذلك :

التصوف :

فنجد أن التصوف في عصر المماليك كان له أثر كبير في الجانبين الديني والاجتماعي ، وانتمى إليه عدد كبير من مختلف طبقات المجتمع .

فقد وفد على مصر في عصر المماليك كثير من مشايخ الصوفية المغاربة والأندلسيين : كالسيد أحمد البدوي ، وأبي الحسن الشاذلي ، وأبي العباس المرسي ، وقد لقيت مسالكهم قبولا لدى المصريين ، كما ظهر بمصر كثير من المتصوفين ، كابن الفارض^(١) وساعد على انتشار التصوف كثرة البيوت

(١) السيوطي : حسن المحاضرة (ص ٢٩٢ وما بعدها) .

الخاصة بالصوفية، والتي أقيمت لهم، وهي ما عرفت بالخوانق والربط والزوايا.

وقد انقسم الصوفية إلى طرق عديدة، لكل منها شيخها وشعارها: فالأحمدية - مثلاً - نسبة إلى السيد أحمد البدوي، وشعارها اللون الأحمر، وهكذا غيرهم كان لهم شعارهم المميز لهم.

على أن كلمات «الخوانق والربط والزوايا» تحمل دلالات مختلفة ومتقاربة، فهي جميعاً تدل على بيوت أنشئت لتقيم بها جماعات من الصوفية الذين انقطعوا للعبادة بشروط معينة^(١).

وقد شهد عصر سبط المارديني بالقاهرة عدداً من الخوانق، فكان هناك خانقاه سعيد السعداء، التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي، ووقف عليها أوقافاً، والخانقاه البيبرسية التي اعتبرت أعظم خانقاة بالقاهرة، وخانقاة سيخو، ورباط الآثار^(٢).

وقد جرت العادة بأن يعين لكل خانقاه شيخ أو أكثر، وعدد من الصوفية، كما كانت هذه المنشآت معاهد ثقافية، تدرس فيها العلوم الشائعة وقتذاك^(٣)، وكان لكل خانقاه أوقاف سخية، تفي بأجور القائمين بالتدريس فيها، كما يتفق منها على الصوفية.

وقد كان للصوفية آداب وتقاليد مرعية، وكثيراً ما اجتمع الناس لمشاهدة صوفية خانقاه سعيد السعداء عند ذهابهم إلى صلاة الجمعة في خشوع ونظام، تبركاً بهم، وقد كان الصوفية بصفة عامة موضع إجلال الناس وتقديرهم في ذلك العصر، وكان الأمراء يتنافسون في بناء الزوايا لهم.

غير أن الحال لم يبق على ذلك. إذ تغير في أواخر ذلك العصر من الصلاح إلى الفساد، وتخلوا عن كثير من النظم والآداب التي عرفوا بها بين الناس، كما

(١) طاهر حمودة: جلال الدين السيوطي (ص ٥٠)

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة (ج ١ ص ١٧٨).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (ج ٢ ص ١٤٢)

أنشأ شيوخهم يمدون الأسمطة الحافلة، وينفقون أموال الأوقاف في غير وجوهها^(١).

ويبدو أن انتشار الفقراء وسوء الأحوال الاجتماعية الذي سبقت الإشارة إليه قد حدا بكثير من الناس أن ينتظموا في سلك الصوفية، عن غير استعداد حقيقي، الأمر الذي جعل هذه المنشآت الصوفية تضم كثيرا من الدخلاء والأدعياء^(٢).

أهل الذمة:

كان أهل الذمة أقلية في ذلك الحين، وقد قدر عددهم في القاهرة وحدها بعشرين ألفا، نصفهم من اليهود، والنصف الآخر من النصارى.

ويبدو أن ثروة مصر واتساع تجارتها في ذلك العهد قد جذبت كثيرين منهم من البلاد الأجنبية، فاستوطنوا المدن المصرية، وحظي كثيرون منهم بثراء واسع^(٣)، وقد تعرضوا خلال هذه الفترة لبعض الاضطهاد بين حين وآخر، وتشير مراجع ذلك العصر إلى بعض ألوان الاضطهاد التي كانت تتباينهم^(٤) ولكنها في غالب الأحيان كانت تتعلق بالأمور المالية، شأنهم في ذلك شأن التجار من المسلمين.

خامسا الحياة العلمية والثقافية

وتتناول ما يلي

أ - تمهيد.

ب - العلماء في هذا العصر.

ج - أنماط التأليف في هذا العصر.

(١) طاهر حمودة: جلال الدين السيوطي (ص ٥١).

(٢) سعيد عاشور: المجتمع المصري (ص ١٧٤ - ١٧٥).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (ج ٢ ص ٢٤٩).

(٤) سعيد عاشور: المجتمع المصري (ص ٤٤).

الحياة العلمية والثقافية

أشرنا فيما سبق إلى أن نفوذ دولة المماليك القوي ساعد على استقطاب ما تبقى من الحضارة الإسلامية بعد غزو المغول للعالم الإسلامي، فأقام العلماء والأدباء في دولة المماليك التي حققت لهم الأمن والحماية والتشجيع.

فقد عرف الكثير من ملوك الأيوبيين بميلهم إلى العلم ومشاركتهم فيه، وإغداقهم على العلماء وتكريمهم، فكان صلاح الدين شديد الشغف بعلوم الدين، وكان يحضر مع أبنائه دروس العلماء المشهورين^(١).

وقد سلك ملوك بني أيوب مسلك صلاح الدين في تشجيع العلم وتقريب العلماء، وقد أنشأ صلاح الدين عددا من المدارس لنشر المذهب السني، ولم يكن بالبلاد مدارس قبل ذلك،^(٢) وكان لكل مدرسة مدرسون، ومعيدون، وطلبة تجري الأرزاق من الأوقاف التي وقفها السلطان لذلك، وقد اتبع كثير من ملوك بني أيوب هذه السنة في إنشاء المدارس والخوانق والمساجد.

وحين خلف المماليك بني أيوب في حكم مصر فإنهم لم يكونوا إقل تحمسا للعلم وأهله، وللمذهب السني من أسلافهم، لذلك دأب ملوكهم على إنشاء المساجد والمدارس والخوانق، ووقفوا عليها الأوقاف السخية.

ولقد حرص كثير من سلاطين المماليك على تشجيع الحركة العلمية بالبلاد والمشاركة في العلوم في بعض الأحيان، وكان للغوري - وهو آخر من عاصرهم سبط المارديني - مجالس علمية، تعقد مرتين أو أكثر في كل أسبوع^(٣).

(١) عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي - الطبعة الأولى دار الفكر العربي (ص ١٤٩).

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة (ج ٢ ص ١٨٥).

(٣) عبد الوهاب عزام: مجال السلطان الغوري في القرن العاشر الهجري - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٩٤١ (مقدمة الكتاب).

وقد ذكر ابن بطوطة أن مدارس مصر في القرن الثامن الهجري - وهو القرن السابق للقرن الذي عاش فيه سبط المارديني - لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها^(١). وكانت هذه المدارس بمثابة جامعات علمية عظيمة الشأن، من حيث طريقة التدريس، ومستوى الدراسة، ونظم التلقي والإقامة.

أما العلوم الأساسية التي كانت تدرس في هذه المدارس فقد ارتبطت بأصول الدين: كالفقه، والحديث، والتفسير، أو العلوم اللغوية، وما يتصل بها، كالنحو والصرف والبيان، فضلا عن الدراسات العقلية: كالفلسفة، والمنطق، والعلوم العملية: كالفلك، والكيمياء، والطب^(٢).

وكان يكثر في هذه المدارس خزائن كتب، حفلت بالكتب الثمينة في شتى العلوم والفنون، وكانت على درجة كبيرة من الإعداد والتنظيم، وقد عنى المماليك أنفسهم بالكتب عناية فائقة، دل عليها احتفاظهم في قلعة الجبل بمكتبة ضخمة بها أكبر عدد من الكتب^(٣).

العلماء في هذا العصر:

وقد حوى هذا العصر عددا من العلماء في شتى العلوم: في الفقه على المذاهب الأربعة، وفي التصوف، وفي علم الكلام، واللغة، والنحو، والأدب، والطب، والتنجيم، والتاريخ، والفلك، وغير ذلك من العلوم.

ولكن لم ينبج العصر فقيها واحدا من طراز الشافعي مثلا، وإنما كان هم الفقهاء شرح كتب أعلام الفقه السابقين، والتعليق عليها، ودراستها، والتوسع فيها، والشيء نفسه عن الحديث الشريف، فعلى الرغم من أن العصر أنجب ابن حجر العسقلاني، والبدر العيني، وغيرهما من المحدثين، إلا أنهم كانوا

(١) ابن بطوطة أبو عبدالله محمد بن عبدالله: رحلة ابن بطوطة - نشر المكتبة التجارية - القاهرة سنة ١٩٥٨ (ج ١ ص ٢).

(٢) طاهر حمودة: جلال الدين السيوطي (ص ٥٧).

(٣) سعيد عاشور: العصر المماليكي (ص ٣٣٣).

مقلدين وشارحين للبخاري ومسلم والترمذي، وغيرهم، وإذا أتينا في حقل التاريخ نجد الشيء نفسه صحيحا، فقد وجد من كبار المؤرخين: كالذهبي وابن تغري بردي، والمقرزي، والسيوطي. ولكنهم جميعا كانوا مقلدين للمؤرخين السابقين أمثال: الطبري، وابن مسكويه، وابن الأثير، وغيرهم. وهكذا في بقية حقول المعرفة^(١).

أنماط التأليف في هذا العصر

١ - التأليف الموسوعي:

لقد ازدهر في هذا العصر نوع من التأليف يهدف إلى حفظ تراث الأمة المشتت في ألوف الرسائل المبعثرة الصغيرة، وجمعها في كتب جامعة، ومن أمثلة هذه الكتب التي يتضح فيها الاتجاه الموسوعي.

- صبح الأعشى للقلقشندي

- نهاية الأرب للنويري

- فتح الباري لابن حجر

- لسان العرب لابن منظور

٢ - ظاهرة المتون والشروح:

اتجه الشيوخ تيسيرا على طلابهم إلى وضع المتون التي تجمع مسائل الموضوعات في قليل من اللفظ، حتى يتسنى لطالب العلم أن يستوعبها بأيسر طريق، وفي زمن قليل، وقد غالا بعضهم في الإيجاز، وفي ضغط العبارة في هذه المتون، حتى بلغت حد الرموز، فاستغلق بذلك فهمها على الطلاب، واحتاجت إلى شروح، فوضعت لها كتب شارحة، ثم وضعت كتب أخرى أكثر تفصيلا، تشرح الكتب الشارحة، ومن ثم تعددت الشروح

(١) محمد حمادة: دراسة توثيقية للتاريخ الإسلامي (ص ٣٦١).

التي تتناول المتن الواحد، ما بين شرح مطول، وآخر يميل إلى الإيجاز، كما نظمت كثير من العلوم في منظومات تعليمية، احتاجت أيضا إلى وضع الشروح لها^(١).

وقد استفرغت المتون والشروح والمنظومات التعليمية جل جهود قرائح العلماء في ذلك العصر، بل أصبح وضع هذه الأنواع يبدو في كثير من الأحيان تمرينات عقلية، يريد بها الشيوخ إثبات مقدرتهم على التأليف^(٢).

ثم نرى - إلى جانب ذلك - الحواشي والتعليقات التي يتكفل بها كثير من العلماء على الشروح السابقة، أو يضعها واضعوها الأصليون، ولقد كان لهذا المنهج في التأليف أثره الخطير في الإنتاج العلمي لهذا العصر، فقد ضاع جهد المؤلفين، واستفرغت ثمار أذهانهم في نظم المنظومات التعليمية التي احتذوا فيها حذو سابقهم، كما تبذرت جهودهم في: الاختصار، والتطويل، والجمع، والتنظيم، والتبويب، والتقسيم^(٣).

٣ - الإكمالات والتذييلات:

شاعت ظاهرة أخرى في هذا العصر، وهي الإكمالات والتذييلات، لا سيما في كتب التراجم والتاريخ، لكن هذه الظاهرة كان لها فائدة عظيمة، وتتمثل هذه الفائدة في أنها كانت سببا في أن وصلت حلقات الزمن المختلفة، وحفظت كثيرا مما كان مهددا بالضياع.

(١) طاهر حمودة جلال الدين السيوطي (ص ٧٧)

(٢) المرجع السابق.

(٣) المصدر السابق (ص ٧٨)

القسم الثاني

حياة (بدر الدين سبط المارديني)

ويشتمل على الآتي:

١ - اسمه ونسبته

٢ - مولده ونشأته، وطلبه العلم

٣ - أخلاقه ومواهبه

٤ - شيوخه

٥ - رحلاته

٦ - حياته العلمية

٧ - مصنفاته

٨ - وفاته

١ - اسمه ونسبته:

هو محمد بن محمد بن أحمد شمس الدين الغزال البدر، الدمشقي الأصل، الشهير (بسبط المارديني - أي ابن ابنته - وقد اشتهر بجده أبي أمه المارديني، وهو الشيخ جمال الدين عبدالله بن خليل، بن يوسف، بن عبدالله المارديني، نسبة لجامع المارديني، أو لبلدة من بلاد العجم^(١)) وهي الآن بلدة في تركيا مقابلة لمدينة القامشلي على الحدود السورية).

وقد عرفه السخاوي في الضوء اللامع^(٢) والشوكاني في البدر الطالع^(٣) بالمارداني.

(١) العلامة البكري: في حاشيته على شرح الرحبي - الطبعة الرابعة، دار القلم سنة ١٩٨٨ (ص ١٦).

(٢) السخاوي شمس الدين محمد بن عبدالرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - طبعة مكتبة القدسي القاهرة، سنة ١٣٥٥هـ (ج ٩ ص ٣٥).

(٣) الشوكاني القاضي محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - طبعة دار المعرفة بيروت (ج ٢ ص ٢٤٢) وذكر مصحح الضوء اللامع أن هذه النسبة لجامع المارديني.

قال الزركلي^(١): كان يعرف نفسه بسبط المارديني، كما هو بخطه، وكذا ذكره في إجازات بخط الشنشوري وغيره.

٢ - مولده ونشأته:

ولد بالقاهرة سنة (٨٢٦هـ)، ونشأ بها، وبدأ في طلب العلم مبكراً، شأنه في ذلك شأن أهل زمانه، فحفظ القرآن الكريم، وجوده، وتلاه ببعض الروايات، وحفظ المختصرات، فدرس النحو، والعربية، والفرائض، والحساب، والميقات، والفقه، والحديث، وكان أول اشتغاله بالعلم سنة تسع وثلاثين وثمان مائة من الهجرة النبوية، وكان له من العمر في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة^(٢)، وتنوع دراسته أدى إلى تنوع معارفه وشموليتها.

٣ - أخلاقه ومواهبه:

عرف بالذكاء مع حسن العشرة، والتواضع، والرغبة في الممازحة، والنكتة، والنادرة، وكان ممتعاً لنفسه، ترك التأنيق في أمره، وكان يشار إليه بالفضيلة^(٣).

٤ - شيوخه:

تتبع أعلام عصره، فحضر مجالسهم، وتخرج بهم، فأخذ عن العلاء القلقشندي، وابن المجد، والمحلي، والبلقيني، وابن حجر، وأبي الفتح المراغي، والقاياتي، والبوتيجي، والشرواني، والخواص، والكريم العقبى، والصالحى، والرشيدي، وشمس الدين بن الفقيه حسن، والنور - إمام الأزهر - وغيرهم^(٤).

(١) خير الدين الزركلي: الاعلام - دار العلم للملايين - بيروت سنة ١٩٧٩ (ج ٧ ص ٥٤ - ٥٥).

(٢) السخاوي: الصوة اللامع (ج ٩ ص ٣٥) والشوكاني: البدر الطالع (ج ٢ ص ٢٤٢).

(٣) السخاوي: الصوة اللامع (ج ٩ ص ٣٥).

(٤) المصدر السابق. والشوكاني: البدر الطالع (ج ٢ ص ٢٤٢).

٥ - رحلاته:

رحل إلى بلاد الشام فدخلها مرتين، ودخل حماة فما دونها، وحج غير مرة، وجاور في الرحبية المزهرية، وإفاد أثناء ذلك من أبي الفتح المراغي بمكة. وزار بيت المقدس غير مرة^(١).

٦ - حياته العلمية:

بعد أن لازم أعلام عصره وفضلاءهم، واستفرغ ما عندهم، وتثقف على أيديهم، فتنوعت معارفه وكملت أهليته، عندها تصدى للإقراء، وانتفع به الناس في الفرائض، والحساب والميقات، والعربية، وغير ذلك.

وصار بآخر عمره فريدا في الفنون، وبأشهر الرياسة في أماكن متفرقة، بل تصدى بجامع بن طولون، برغبة نور الدين بن النقاش له عنه، وعمل فيه أجالسا في صفر سنة تسع وسبعين، وكان موقتا في الجامع الأزهر، وكتب في الميقات مقدمات جملة تزيد على مائتين^(٢).

٢ - مصنفاته: (٣)

صنف صاحبنا في فنون مختلفة من المعرفة، وكان معظمها في الفلك والفرائض والحساب. ومن أهم مؤلفاته ما يلي:

- ١ - تحفة الأحباب في علم الحساب.
- ٢ - جداول رسم المنحرفات على الحيطان، (في الميقات)
- ٣ - حاوي المختصرات في العمل بربع المقنطرات. (في الفلك).
- ٤ - شرح الرحبية (في الفرائض).
- ٥ - شرح الجعبرية (في الفرائض).

(١) السخاوي: الضوء اللامع (ج ٩/ ٣٥) والشوكاني: البدر الطالع آف الذكر.

(٢) المصدرين السابقين. بتصرف.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع (ج ٩/ ص ٣٦) والشوكاني: البدر الطالع (ك ٣/ ص ٢٤٢).

- ٦ - شرح الأشنوية (في الفرائض)، لكنه لم يكمل.
 - ٧ - تعليق مختصر على لامية ابن الهائم (في الجبر والمقابلة)
 - ٨ - دقائق الحقائق في حساب الدرج والدقائق (في الفلك)
 - ٩ - الدر المنثور في العمل بربع الدستور (في الفلك)
 - ١٠ - الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية (في الفلك)
 - ١١ - المواهب السنية في أحكام الوصية (في الفقه)
 - ١٢ - القول المبدع في شرح المقنع (في الجبر والمقابلة).
 - ١٣ - كفاية القنوع في العمل بالربع المقطوع.
 - ١٤ - كشف الغوامض، وشرحه إرشاد الفارض، إلى كشف الغوامض، (في الفرائض).
 - ١٥ - اللمعة الشمسية (في الفرائض)
 - ١٦ - لقط الجواهر في تحديد الخطوط والدوائر.
 - ١٧ - هداية السائل إلى الربع الكامل.
 - ١٨ - قرة العين (في الفرائض).
 - ١٩ - ترتيب مجموع الكلائي (في الفرائض).
 - ٢٠ - شرح فصول ابن الهائم.
 - ٢١ - وسيلة الطلاب ونزهة الألباب إلى معرفة الأوقات بالحساب (رسالة).
 - ٢٢ - شرح الشذور (في النحو)
 - ٢٣ - شرح القطر (في النحو)
 - ٢٤ - شرح التوضيح (في النحو)، لكنه لم يكمل
- ومعظم هذه المؤلفات لا يزال مخطوطا يحتاج إلى من يكشف غوامضه ويظهر مكنونه.

٨ - وفاته :

لم يذكر صاحب الضوء اللامع وفاته، وتابعه على ذلك الشوكاني في البدر الطالع، وذكره ابن إياس في بدائع الزهور في حوادث سنة (٩١٣هـ)^(١) واعتمدها الزركلي في الأعلام^(٢) ووقعت وفاته في شترتبي سنة (٩٣٤هـ)^(٣) رحمة الله - سبحانه وتعالى - رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

ملاحظات عامة حول مراحل حياة سبط المارديني

بعد أن تعرفنا على مجمل حياة سبط المارديني، والعصر الذي عاش فيه، أريد أن أسجل هنا ملاحظات حول بعض الجوانب المهمة، التي نتبين من خلالها مدى تفاعل هذه الشخصية مع الأحداث المحيطة بها، وتأثيرها وتأثيرها بالمجتمع المحيط بها.

أولاً: إن العصر المملوكي الذي عاش فيه سبط المارديني - كما مر سابقاً - كان من الناحية السياسية يمثل شيخوخة دولة المماليك. وعصر القلق والاضطراب السياسي، إذا استثنينا عهد السلطان قايتباي، ومما لا شك فيه أن عدم الاستقرار له تأثير على الحياة العلمية والحياة الاجتماعية بشكل مباشر، لكن الذي خفف من وطأة ذلك استمرار المماليك في تشجيع العلم واحترام العلماء.

ثانياً: سبط المارديني والحياة السياسية :

لم تكن لسبط المارديني - كغيره من العلماء - مشاركة تذكر في مجالس السلاطين، ولعل السبب في ذلك ميله للاشتغال في علوم الحساب والفرائض والفلك، وتغلبه لهذا اللون من العلوم على غيره، فلم يكن له صلة بالقضاء

(١) ابن إياس: بدائع الزهور (١٠٧/٤) طبعة استانبول.

(٢) الزركلي: الأعلام (٥٥/٧).

(٣) نقلاً عن الزركلي.

الذي كان سببا في تقريب الكثيرين من السلاطين، ومشاركتهم مجالسهم، وحضورهم مبايعتهم.

ثالثاً: مكانته العلمية والاجتماعية:

إن سبط المارديني وإن لم تكن له مشاركة في مجالس السلاطين والمبايعات والعهود لكنه من ناحية أخرى كان له دوره العلمي، ومكانته الاجتماعية المرموقة بين الناس، الأمر الذي جعلهم يلتفون حول مجالسه في أعرق مساجد القاهرة، كما سنتبين ذلك بعد قليل. وفي الحديث عن مكانته العلمية نحاول أن نعرض لها حسب المراحل التي مر بها.

أولاً: بداية اشتغاله بالعلم:

بدأ طلب العلم مبكراً، فاشتغل بحفظ القرآن الكريم - وإن لم تحدد الروايات متى بدأ ذلك - لكن الشأن المتعارف عليه عند أهل العلم أن اشتغال الطلاب بحفظ القرآن يبدأ مع الطفولة، وأن يكون حفظ القرآن سابقاً لأي علم، حتى إن كثيراً من العلماء كانوا يمتحنون من يريد التلمذ عليهم، ليستوثقوا من حفظه القرآن، حتى يأذنوا له بالتلقي عنهم.

«فحفظ القرآن وجوده على النور إمام الأزهر، بل تلاه عليه ببعض الروايات»^(١)، وهذا يدل على توقد ذهنه وذكاؤه، وأهليته للعلم. ثم خطا بعد حفظ القرآن الخطوة الثانية في سلم العلم، فبدأ بحفظ المتون، والمختصرات في أنواع العلوم المختلفة التي لا بد منها في تأسيس قاعدة علمية سليمة، فتلقى ذلك على أعلام عصره، «وكان أول اشتغاله بالعلم سنة تسع وثلاثين وثمانمائة»^(٢)، وله من العمر اثنا عشرة سنة، وبضعة أشهر.

(١) السخاوي: الضوء اللامع (ج ٩ ص ٣٥).

(٢) المصدر السابق.

ثانيا: تكميله للمشوار العلمي

ذكر السخاوي أنواع العلوم التي بدأ سبط المارديني في الاشتغال بها، والأساتذة الذين تلقاها عنهم، فقال: «حفظ ألفية النحو، وبعض المناهج، وأخذ عن ابن المجدي الفرائض والحساب والميقات، ولازم دروسه، وكذا لازم العلاء القلقشندي في الفرائض والفقه، ومما أخذه عنه: الفصول لابن الهائم، وتقسيم الحاوي وبهجته، والمناهج، والمهذب، بل قرأ عليه البخاري، والترمذي، وغيرها. وحضر - أيضا - دروس القياي، والبوتيجي، والمحلي، والعلم البلقيني، والشرواني، والخواص، وقرأ في العربية على الكريم العقبي، وسمع على شيخنا. - يعني ابن حجر - والصالح، والرشيدي، وغيرهم، بالقاهرة، وأبي الفتح المراغي بمكة، وشمس الدين بن الفقيه حسن بدمياط، وآخرين»^(١).

ثالثا: اكتمال شخصيته العلمية:

ويعد أن اكتملت أهليته العلمية، واستوى على أشده. بدأ رحلة العطاء، قياما بواجبه الديني والعلمي «فتصدى للإقراء، وانتفع به الفضلاء في الفرائض، والحساب، والميقات، والعربية ونحوها»^(٢)،

وقد دخل مع غيره في منازعات علمية، مما يدل على تمكنه وشهرته، «فنازع في مسألة الجهر بالتسميع، وخالف في ذلك الزين زكريا، وتنافس معه بسببها، وكذا انتقده في شرحه للفصول، ونازع ابن السيد عفيف الدين في دعواه تقديم أذان المغرب قبل تمكن الغروب»^(٣) لأنه كان موقتا بالجامع الأزهر.

واستمر في التأليف والتدريس إلى أن «صار بآخرة فريدا في فنون، وباشر الرياسة في أماكن»^(٤) وعرف له العلماء مكانته العلمية، وأحقته بالتصدر

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع (ج ٩ ص ٣٦).

(٤) المصدر السابق.

للتدريس في أعرق الجوامع وأشهرها، والتي كانت وقتذاك بمثابة جامعة علمية «فتصدر بجامع ابن طولون برغبة نور الدين بن النقاش له عنه، وعمل فيه أجالسا في صفر سنة تسع وسبعين»^(١) أي قبل وقاته بثلاثين سنة، ولييان أهمية جامع ابن طولون أسوق نبذة قصيرة عنه.

جامع ابن طولون^(٢):

بناه أحمد بن طولون بالقطائع عام (٢٦٣هـ)، وفرغ من بنائه عام (٢٦٦هـ)، وظهرت أهمية هذا المسجد من أول يوم، إذ خطب فيه أبو يعقوب البلخي، وأملى به الحديث الربيع بن سليمان تلميذ الشافعي، وقد قرر به ابن طولون جماعة من العلماء والفقهاء، وأجرى عليهم الرواتب والصدقات، وقد بلغ ما ينفق من الرواتب والصدقات في اليوم الواحد ألفا ومائتا دينار، وكان هناك مارستان ملحق بالمسجد، لإيواء المرضى والضعفاء^(٣).

وقد لقي المسجد عناية السلطان لاجين، الذي تولى السلطنة عام (٦٩٦هـ)، بعد أن ناله غبار الإهمال، فوقف عليه السلطان أوقافا غنية، ورتب فيه دروسا عديدة، للحديث والتفسير والفقه على المذاهب الأربعة، والقراءات والطب والميقات.

وكان - بعد ذلك - بعض نظاره من أمراء المماليك، وبعضهم من القضاة، واستقر الأمر بأن يلي القضاة نظارته^(٤). وهذا ما كان في زمن سبط المارديني. هذه لمحات سريعة عن حياة سبط المارديني، حاولت جاهدا جمعها من المراجع والمصادر التي وقعت تحت يدي، وتضم بين طياتها الحديث في أسطر متواضعة عن حياة هذا العالم الفاضل، لكنني أعتقد أن هناك الكثير والكثير غير ما ذكرته عنه ما زال غامضا، يدل على عبقريته ونبوه وآثاره

(١) المصدر السابق.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة (ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨٣).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٣٨.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٣.

القيمة التي خلفها لنا، لكنها حبيسة كتبه التي ما زالت مخطوطة، وتستنجد بمن يخرجها إلى حيز الوجود، لذا فإننا نسأل المولى - جلت قدرته - أن يقيض من العلماء الأفاضل من يتطوع مشكوراً، ليقوم بتحقيق آثار ومخطوطات عالمة الجليل، وأن يخرجها إلى حيز الوجود، حتى تظهر للناس عظمة هذا الرجل وعبقريته، فيستفيدوا منها في حياتهم، وبذلك يكون سبط المارديني قد وفي حقه، ونصف الإنصاف اللائق بمكانته العلمية، لأنه كما يقول السخاوي: «وبالجملة ففضيلته منتشرة، ومحاسنه مقررّة، ولكنه لم ينصف في تقرير شيء يناسبه، كما هو الغالب في المستحقين^(١). كما نسأله سبحانه وتعالى أن يكون جهدي المتواضع في هذا البحث إسهاماً نافعا في إيفاء هذا العالم حقه. والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

(١) السخاوي: الضوء اللامع ج ٩ ص ٣٦.

مراجع البحث

- ١ - جمال الدين الخيال ومحمد أحمد (تحقيق)
- اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي سنة (١٩٦٧م).
- ٢ - الزركلي: خير الدين
- الأعلام: طبعة دار العلم للملايين، بيروت سنة (١٩٧٩م).
- ٣ - ابن إياس محمد بن أحمد الحنفي.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، المعروف بتاريخ مصر الأجزاء (١ - ٣) الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة (١٣١١هـ) و (٤) طبعة استانبول.
- ٤ - د. طاهر حمودة
- جلال الدين السيوطي - نشر المكتب الإسلامي بيروت، سنة (١٩٨٩).
- ٥ - د. عبداللطيف حمزة
- الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الطبعة الأولى دار الفكر العربي.
- ٦ - المقرئزي: تقي الدين أحمد بن علي
- الخطط: المسماة المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار مطبعة النيل بالقاهرة سنة (١٣٢٦هـ).
- ٧ - محمد حمادة
- دراسة توثيقية للتاريخ الإسلامي ومصادره - نشر مؤسسة الرسالة بيروت سنة (١٩٨٨).
- ٨ - ابن بطوطة: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد.
- رحلة ابن بطوطة: المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - المكتبة التجارية القاهرة سنة (١٩٥٨).

- ٩ - ابن العماد: أبو الفلاح عبدالحى الحنبلى:
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب - نشر مكتبة القدسي بالقاهرة سنة (١٣٥١هـ).
- ١٠ - القلقشندي: أبو العباس أحمد
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا - المطبعة الأميرية سنة (١٣٣١هـ).
- ١١ - السخاوي: شمس الدين محمد بن عبدالرحمن.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - نشر مكتبة القدسي القاهرة سنة (١٣٥٥هـ).
- ١٢ - د. سعيد عاشور
- العصر المماليكي في مصر والشام - الطبعة الأولى، دار النهضة العربية القاهرة سنة (١٩٦٥).
- ١٣ - د. عبدالوهاب عزام
- مجالس السلطان الغوري في القرن العاشر الهجري - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة (١٩٤١).
- ١٤ - عيسى عاشور
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك - الطبعة الأولى، نشر دار النهضة العربية، القاهرة، سنة (١٩٦٢).
- ١٥ - أبو المحاسن: جمال الدين يوسف بن تغرى بردى
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - نشر الهيئة العامة للكتاب، مصر، سنة (١٩٧٢).

Badr 'Ad-Deen Muahammad 'ibn 'Ahmad 'ad-Dimashqi, Called "Sibt' Al-Mardini" His Era and Life

Dr. Bader 'Abdul-Razzaq' Al-Mass

This paper, which is a study of the era and life of the famous scholar (Bader 'Ad-Deen Muhammad 'ibn 'Ahmad 'Ad-Dimashqi, called "Sibt 'Al-Mardini"), is composed of two parts: the first is about the era, and the second is about his life.

Part 1. dealt with the political, social, economic, religious and academic life in 'Al-Mardini's era.

As for the political life, I indicated the transfer of the Caliphate from Baghdad to Cairo, and the Mamlukes' role in establishing it. I introduced the Caliphs and Sultans, who ruled along the life of Sibt 'Al-Mardini, as well as the political conditions prevailing at that time. I have also studied the government systems, the administrative structure and the types of the judicial system and its role in that period.

In the social life, the following classes were indicated: the ruling, the educated and the writers, the businessmen, the artisan and the common people.

In the economic aspect of life, the paper clarified the different activities, the deterioration which hit that period, the waves of plundering the markets suffered.

Concerning the religious life, two main phenomena were described: Tasawwuf (mysticism) and "Ahlu 'Adh-Dhimmah" (Non-Muslims in the Muslim society).

The role of Mamlukes in encouraging the scientific and cultural activities through building schools and generously financing them was also pointed at. The different approaches of authoring, such as the encyclopedic trend, the phenomenon of "mutoun" (the condensed texts of the contents of disciplines) and their explanations, completions and comments.

Part II. was dedicated to the life of "Sibt 'Al-Mardini": his name, lineage, birth, early life, education, morals, talents, teachers, Journeys, academic life, books and death. Those aspects were firstly presented in general, then followed several important remarks which clarified his interaction with his era and the high status he occupied academically and socially.